عبد الغفار مكاوي
موسوعية الرؤية/ رحابة الفكر

بقلم: د./ عبدالله التطاوي(*)

يظل نجما ساطعا في سماء جامعة القاهرة، ونموذج إشعاع فكري راق في كلية الآداب على مختلف تخصصاتها اللغوية والإنسانية حتى ليحار الإنسان في تصنيفه مبدعا وأديبا وفيلسوفا وناقدا ومؤرخا، هو كل هذا في آن، مع تواضع جم، وحياد أعم يفيض أدبا وعلما من واقع خبرات عميقة، وأدوات أدق، وقراءات أعمق.

عرفناه في السبعينيات حين كان يتحرك بين ردهات كليته وقاعاته وساحاتها أستاذًا خلوقا وقورا ورزينا هادئ الطباع طيب القلب نقي السريرة، يطمئن إليه الكبار من الأساتذة والصغار من الطلاب في حوارات شفافة تجلى فيها الصفاء والنقاء والصدق والإخلاص والموضوعية والأمانة، وحولها من قيم الأستاذية الرفيعة وأخلاق العلماء الأفذاذ الكثير مما يتوق له أستاذ الجامعة في ضوء مواثيق الشرف والأعراف الجامعية في أفضل صورها وأرقى مشاهدها.

وحتى حين غاب عن كليته لسنوات عديدة في الإعارة كنا نتساءل: لماذا الغياب لهذه القيمة الرفيعة، وربما كانت الإجابة المطروحة على الساحة دائما في شأن الأساتذة الكبار حين استقطبتهم بعض الجامعات العربية فتركوا فيها بصمات لا تنسى، وعلاقات يصعب تجاهلها في فترات إعارتهم، ومع هذا ظل تواصله مع زملائه ومريديه وطلاب تخصصه علامة دالة على عمق تأثيره الفاعل في التكوين والتثقيف الراقي من خلال مشاركاته وكتاباته الفلسفية المتأنية والمتأنقة في معظم المجلات الثقافية بمصر والوطن العربي كله.

(*) أستاذ الأدب العربي بكلية الآداب – جامعة القاهرة.

امتدت عطاءاته البناءة في ذلك الرابط البيني رفيع المستوى بين أقسام اللغات وأقسام الإنسانيات منذ عمل بقسم اللغة الألمانية في بواكير التحاقه بالسلك الجامعي إلى أن انتقل للعمل بقسم الفلسفة الذي آثره بمؤلفاته في مجال التخصص بعد أن أضاف إليها بينيه أخرى في ميوله الأدبية والنقدية فدخل بكل ما كتبه في عمق ثقافتنا العربية بجذورها العميقة وقسماتها الرفيعة بين الإنسانية والرحابة والعمق والموسوعية في آن.

تبدت الإنسانية في كتاباته عن الحكمة، والحقيقة، والحكماء السبعة، فكان فيها سائرا على منهج المفكرين العرب الكبار حين استدعاهم الرشيد لجمع علوم الأوائل تصنيفا وجمعا وتحقيقا وشرحا وتحليلا، إلى جانب موهبة التأليف التي برع فيها، ومعها كانت براعته ونبوغه في حركة الترجمة التي تعد النافذة الحضارية للتفاعل مع ثقافات الآخر وفكره و إبداعه، وكأنما أعاد منا الذاكرة إلى دور قلم الترجمة في دار الحكمة بما أفرزه من انفتاح على اللاتينية واليونانية والسريانية والأوردية والفارسية، فكان التفاعل الحضاري وتداعياته من العمق والثراء على منهج العلماء الأفذاذ من كوكبة أعلام الفكر العربي في عصر النهضة حين تكلم العلم بالعربية لثمانية قرون من عمر الزمان.

على هذا المنهاج كانت ترجمات مكاوي بما نقله إلى العربية من نصوص فلسفية أثرت العقل العربي من خلال ما نقله من نصوص لأفلاطون وأرسطو ولاؤتس وليبنتز وكانط وهيدجر وياسبرز، وإلى جوارها جاء ما نقله من نصوص أدبية لكل من بشنر وبرشت وتانكريد دورست، ومن الطريف لديه أن ينقل نصوصا شعرية إلى العربية لكبار الشعراء الغربيين من سافو في العصر اليوناني إلى جوته وهلدرين من المعاصرين.

ومعنى هذا أن الدكتور مكاوي قد تمكن من لغة الترجمة نقلا منها و إليها بقدر إجادته للغة الأم التي يشهد له أهلها بنبوغه فيها حتى ارتقى إلى حد ترجمة الشعر وهي منزلة صعبة لا يرتقي بها إلا نفر قليل من الأدباء والمفكرين والنقاد الذين تصدرهم بهذه الترجمات في الحقول المعرفية بين الفلسفة والأدب، ثم التفوق والتميز في ترجمة بعض نصوص الشعر إلى العربية.

ولأن الإنسان كل لا يتجزأ فقد اكتمل المشهد بين التأليف والترجمة لدى الدكتور المؤلف والمترجم من واقع ما ألفه في حقل الدراسات الأدبية من ثورة الشعر الحديث من بودلير إلى العصر الحاضر، إلى جانب ما كتبه من البلد البعيد – التعبيرية – لحن الحرية والصمت – النور والفراشة – هلدرين – ملحمة جلجامش ..وغيرها.

هكذا تراءت موسوعية الفكر والإبداع لدى الدكتور مكاوي من خلال أربعة محاور كبرى يمكن تركيزها فيما يلي:

١- عمله أستاذًا جامعيًا ومعلمًا وقورًا أصبح قدوة وصار أنموذجا لطلابه في مدرسة الفكر الفلسفي وقد اتسعت آفاق عمله بجامعة القاهرة بين قسميها للغة الألمانية والفلسفة ليمتد الانتفاع بعلمه وخبراته وتجاربه حين عمل معارًا بجامعة صنعاء ومالي وجامعة الكويت لتتسع دوائر تأثيره ويزداد عدد طلابه ومريديه في أرجاء الوطن العربي كله.

٢- دراساته ومؤلفاته التي دلت - بطبيعتها - على منهجية ثاقبة ورؤى وأفكار استقرائية واستقصائية ظلت دالة على دوره عالما في سياق تخصصه الفلسفي الذي أضاف إليه انشغاله بحقوق الدراسة الأدبية محققًا مفهوم التداخل البيني بين الأدب والفكر الفلسفي بخاصة.

٣- مشاركاته في صناعة النسق الثقافي العام لأبناء الوطن منذ عمل بدار الكتب المصرية تحت رئاسة توفيق الحكيم قبل التحاقه بسلك التدريس بالجامعة، إلى مشاركاته في هيئة تحرير مجلة «المجلة» مع الأستاذ يحيى حقي ومجلة الفكر المعاصر مع د./ فؤاد زكريا فكانت الزمالة والصحبة مع كبار الفلاسفة وكبار المبدعين مما ترك أثرًا جليا - بالتأكيد - في إبداع الدكتور مكاوي ومؤلفاته فكان امتدادًا طيبًا لهؤلاء الشوامخ إلى جانب ما أضافه إلى عطائهم من اجتهاداته الخصبة.

٤- دوره البارز في حركة التعبير عن الرأي من منظور علمي وأطياف واسعة عبر مقالاته في كبرى المجلات الثقافية المصرية والعربية، إلى جانب دوره الأعمق من خلال نافذة حركة الترجمة التي أطل من خلالها على فكر الآخر وإبداعه، وكان له فضل النقل إلى العربية بما يمثل نمطا من التلاقي والتفاعل في صورته الحضارية الراقية التي تظل -بدورها- علامة مؤكدة على أصالته الفاعلة في الجمع بين تحديث الموروث وتأصيل المعاصر.

هكذا كان الأستاذ الجليل بكل ما عرف عنه عالما وإنسانا تمتع بأخلاقيات العلماء وموسوعية الرؤى، فكان خلوقا وقورا بقدر هدوئه وحكمته ورزانته وما عرف عنه من الهدوء والأناة والروية والتمهل ورسوخ المنهج، وأصالة المعرفة بما يظل من خلاله علما هاديا على طريق النجاح، وبما يستحق أن ندعو له بدوام العطاء وموصول التوفيق وكل السداد وتمام الصحة والعمر المديد بإذنه تعالى.